إسهام الرحالة والمجاورين الأندلسيين

على الحياة العلمية بمكة المكرمة

من القرن الثاني حتى نهاية القرن السادس الهجري

إعداد

أ . د. وفاء بنت عبد الله سليمان المزروع

بحث مقدم إلى ندوة

مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية ١٤٢٦هـ

تمهيد:

أسس النبي محمد عليه الصلاة والسلام المسجد كأول مدرسة في الإسلام كي يبني الأجيال ويصنع الرجال ويعدهم خير إعداد، وعلى أساس المسجد يقوم كيان الأمة الروحي، وبين أركانه يتدارس المسلمون كتاب الله ويتلونه حق تلاوته، ويؤدون الشعائر الدينية، ويقيمون الصلاة، ويعلمون المترددين عليه شئون الدين والدنيا.

ولقد ساهم المسجد في التثقيف العلمي للمسلمين وقام في الحضارة الإسلامية مقام المدارس والجامعات، فجلس العلماء يعلمون العلم وأحكام الدين، فترى المسجد الحرام وقد ازدحم برجال الحديث والقراء وأصحاب الفتوى والتفسير، وظلت حلقات العلماء تزداد اتساعاً خاصة في موسم الحج الذي يجتمع فيه العلماء لمدارسة الأمور الدينية فيما بينهم، ويتناقلون عن بعضهم الحديث والتفسير والفقه وأصول العربية، ويعودون بجرعات عظيمة ومؤلفات متعددة، علاوة على ما في رحلات الحج في حد ذاتها من فوائد تجارية وثقافية وصولاً إلى مكة المكرمة حيث الهدف الروحي الأول.

ومن خلال تتبع رحلات الحج نجد أن العلماء قاموا بتسجيل حيٍ للمجتمع الإسلامي في تلك الفترة من كافة جوانبه، بالإضافة إلى أن تلك الرحلات كانت تعكس الطابع الحضاري الذي كانت عليه تلك الديار في تلك الفترة.

ولقد ظهر نشاط علماء الأندلس والمغرب القادمين إلى الديار المقدسة بصورة واضحة ولافتة، فمنهم من جاور واستقر، ومنهم من حج وغادر، وكلا

الطرفين ترك أثراً عميقاً وانفرد بخصائص مهمة أثناء عودتهم إلى ديارهم بعد المجاورة أو قضاء فريضة الحج.

ولقد ساهم وجود العلماء في أرض الحرمين في ميلاد حركة علمية أطلقت المصادر على روادها اسم العلماء المجاورين بمكة، وهو موضوع لم ينل حظه الكامل في الدراسات التاريخية الحديثة، رغم أهمية هذه الظاهرة في تشكيل الحركة الثقافية بمكة.

وتنوعت أسباب مجيئهم ما بين أداء الفريضة، وطلب العلم والتجارة، والاستشفاء. وحرص هؤلاء القادمون على لقاء العلماء وشهود حلقات العلم التي تزدحم برجال القراءات، والتفسير، والحديث، والفقه، والسير، والمغازي، وعلم الأنساب، والأدب، والطب، وغير ذلك من العلوم. وكانوا يحرصون على حضور المناظرات التي تعقد بين العلماء الذين قدموا إلى أرض الحرمين من مختلف الأنحاء وفي مختلف فروع العلم.

ولم يكتف هؤلاء في تلقيهم العلم على الحلقات التي تعقد في الحرمين، وإنما كانوا يتلقونه ويحرصون عليه أينما وجدوه.

ومن هنا يبرز دور الحج في إثراء الحركة العلمية بأرض الحرمين والتي كان لعلماء الأندلس الدور البارز في المساهمة فيها.

هذا وقد تناولت هذه الدراسة بعد التمهيد دور الرحلة الأندلسية ومن ساهم فيها، وأهمية الرحلات إلى أرض الحرمين، والرحلات المغربية والأندلسية كمصدر تاريخي هام لمكة والحجاز، والمجاورين وأهمية الدور الذي قاموا به، ثم الخاتمة التي توصلت فيها إلى أبرز نتائج الدراسة، والله أسأل التوفيق والرضا.

الرحلة الأندلسية :

عرفت بلاد الإسلام في الأندلس حضارة مزدهرة فانتشرت فيها العلوم، وظهرت فيها المصنفات، وامتدت علاقات علمائها إلى الكثير من المراكز الإسلامية في العالم؛ مما أدى إلى الامتزاج والتلاقح في شتى ميادين المعرفة، وتشهد كتب التاريخ ما كان لهؤلاء العلماء من شغف بالعلم والدرس، فقد نبغ كثير منهم وبرزوا في علوم عصرهم، ومما يسر لهم هذا الرقي العلمي قيام العديد منهم برحلات إلى سائر الأقطار الإسلامية لدعم الروابط الثقافية، والأخذ من الأعلام المعاصرين، والإسهام في تطوير المعرفة. وقد كان الأندلسيون مثار إعجاب الكثيرين من شيوخهم وزملائهم و طلبتهم الذين جمعتهم بهم مجالس العلماء في المشرق الإسلامي ، فقد سرهم ماوجدوه لدى أبناء الأندلس من رغبة في العلم، ومن علو في الهمة ،ومن حذق في الطلب وقد أشاد المقري بهم و بصفاتهم التي تحلوا بها حيث قال عنهم (فالعالم منهم بارع لأنه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه، و يحمله على أن يترك الشغل الذي يستفيد منه، و ينفق من عنده حتى يعلم)[(١)].

ومن أبرز الأماكن التي رحلوا إليها بلاد الحرمين الشريفين مكة والمدينة، فتعددت رحلاتهم إلى الحجاز التي كان لها أكبر الأثر في ثقافتهم. ويعود خروج الأندلسيين من بلادهم إلى فترات باكرة من حياة الأندلس العلمية، وبالتحديد في عصر الأمارة ١٣٨هـ/١٠٥٥م، فبعد أن استقرت الأوضاع في الأندلس انصرف الناس إلى البناء الحضاري في تحصيل العلوم

١- المقري : نفح الطيب ، ج١ ، ص٢٢١ .

والآداب، وكانت العلوم الدينية آنذاك هي قطب الرحى في النشاط العلمي ومدار البحث والدرس لارتباطها بالعقيدة الإسلامية التي يعتنقها الفاتحون[١].

وكان الرحالة الأندلسيون ينتهزون فرصة أدائهم فريضة الحج في التجول بين المراكز العلمية المختلفة للقاء العلماء، والأخذ عنهم، وتسجيل أسماء مشايخهم وأسانيدهم ومروياتهم، وما أخذوه عنهم من كتب وإجازات[٢]. وتعد الرحلة فن من فنون الأدب العربي تخصص وأبدع فيه الرحالة الأندلسيون لكثرة دوافعهم في القيام بمثل هذه الرحلات.

وعلى الرغم من كون هذه الرحلات لم تدون في كتب محررة إلا أن ذاكرة المرتحلين اختزنت معلومات مهمة عن الحياة العلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغير ذلك مما شاهدوه ووقفوا عليه بأنفسهم، وقد سجلت كتب التراجم الأندلسية شيئاً غير قليل من هذه المعلومات التي أذاعها المرتحلون الأندلسيون في أوساط الناس عقب عودتهم إلى الأندلس، ويسمى النوع الثاني من أنواع الرحلة الأندلسية إلى الجزيرة العربية بـ (الرحلات الفهرسية) أو البرامجية، وكلمتي (فهرسة) و(برنامج) من الألفاظ الفارسية المعربة التي استخدمها الأندلسيون كثيراً للتعبير عن طائفة من الكتب ا لتي جمع فيها المؤلفون أسماء شيوخهم وأسانيدهم ومروياتهم وقراءتهم على شيوخهم والمصنفات المجازة لهم ونحو ذلك، و(البرنامج) و(الفهرسة) مرادفتان لكلمات (المعجم) و(الثبت) و(المشيخة) والمستعملة في المشرق الإسلامي[٣].

١- سعد البشرى: الحياة العلمية في عصر الخلافة، ص ٣٣.

٢- عواطف نواب: الرحلات المغربية والأندلسية، ص ٦٠.

٣- خالد البكر: الرحلة الأندلسية إلى الجزيرة العربية، ص ٢٣، ٢٤.

وقد اتخذت بعض الرحلات الأندلسية إلى المشرق الإسلامي عموماً طابعاً فهرسيا؛ وذلك حينما يسهب مدون الرحلة في حديثه عن العلماء الذين اتصل بهم في البلدان التي زارها، وعن الدروس التي حضرها، والشيوخ الذين استجازهم، والكتب التي وصل سنده إلى مؤلفيها، وما سمع من أحاديث، وما روى عن أشعار وغيرها[١].

وقد انفرد الرحالة الأندلسيون بمميزات ميزتهم عن غيرهم من الرحالة المشارقة.

كما انفرد كل رحالة ببعض الخصائص في رحلته، فبعضهم اعتمد على التجربة والاختبار لا على الرواية والنقل، أمثال ابن جبير[٢] في رحلته. وبعضهم اعتمد على الأخرى أمثال العبدري[٣] والتجيبي السبتي[٤].

وتنوعت أسباب رحلات الرحالة إلى الشرق ما بين أداء الفريضة وطلب العلم، أو التوبة و التكفير عما اقترفوه من الخطايا و الذنوب فرحلوا إلى مكة لأداء المناسك و التقرب إلى الله بالأعمال الصالحة، ومن هؤلاء سعيد بن عمران الذي عاش في القرن ٣هـ/٩م، و كان ذا مال و نعمة ظاهرة مع تفريط في جنب الله، فتاب وأناب و خرج حاجاً وتعبد و صار منقطع القرين[٥]. وصنف منهم أعرض عن الدنيا وزهد فيها و عكف على العبادة و اشتد حنينه إلى بيت

١- خالد البكر : المرجع السابق ص ٢٤ .

٢- ابن جبير : الرحلة ، ص ٦٧.

٣- العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٧٥.

٤- التجيبي السبتي : مستفاد الرحلة ، ص ١٤٢.

٥- ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، جـ١ ، ص ٢٩٢ .

الله مثل أحمد بن وليد بن مروان[١]. ومنهم من رحل طلباً للاستشفاء، وقد روي أن ارتحال ابن الأحمر الأموي من الأندلس إنما كان بسبب قرحة خرجت بأنفه أو ببعض جسده ، فلم يجد لها بالأندلس مداوياً ، وعظم عليه أمرها وقيل له ربما ترقت فأدت إلى الهلاك، فأسرع إلى الخروج إلى المشرق[٢] وربما يكون ذلك طلباً للرزق و للاتجار.

ومن أهم هذه الدوافع هو الخروج لأداء الفريضة ، فابن جبير كان خروجه لأداء الفريضة ، وكذلك ابن بطوطة ، والرعيني ، وابن جابر الوادي أشي ، وأيضاً التجيبي ، والسبتي ، والبلوي ، وابن رشيد رحلوا لأداء الفريضة وطلب العلم. ولكنهم ساروا على أسس وخصائص الرحلة المغربية ، وعلى طريقة الأندلسيين في تسجيل رحلاتهم .

ويعد الوصف الجغرافي هو القاسم المشترك لأغلب الرحالة المغاربة والأندلسيين ، ووصل اهتمامهم به درجة كبيرة جداً فوصفوا (الأحوال الجوية، والمدن ، والمساجد ، و المباني ، وأماكن وجود الماء ، و البساتين ، ووصفوا القلاع و الحصون ، ووصفوا البحر ، و الجبال ، والصحاري ، والطرق ، والقرى ، والآثار التاريخية القديمة ، ووصفوا المجتمعات وأخلاقهم وطباعهم فجاءت هذه الرحلة كوثيقة هامة حية من وثائق العصر الذي دونت فيه)[٣] وخير مثال لذلك ما تجده في كتابات ابن جبير و ابن رشيد ، وإن كان يشذ بعض الرحالة عن ذلك مثل الرعيني و ابن جابر الوادي أشي الذين

١- خالد البكر : الرحلة ، ص ٤٢ .
٢- الحميدي : جذوة المقتبس ، جـ١ ، ص ١٤٥- ١٤٦ .
٣- عواطف نواب : المرجع السابق ، ص ٦٦- ٦٧.

اتسمت كتاباتهما بطابع البرامج .

ويليه في الأهمية الدافع العلمي فقد كان من الدوافع الواضحة التي أدت بهم إلى شد الرحال إلى أرض الحرمين بعد الدافع الديني ، ويؤكد ابن خلدون[١] على أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم يقوله (وأن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علماً وتعليماً وإلقاء، وتارة محاكاة وتلقيناً بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشائخ ومباشرة الرجال)[٢].

ومن نص ابن خلدون ندرك الأهمية التي كان يعطيها الأندلسيون للرحلة العلمية، فكانوا يرحلون لسماع الحديث وتلقي صنوف العلم وتبادل الإجازات، وبذلك يوثقون الروابط الثقافية بين المراكز العلمية المترامية في أنحاء العالم الإسلامي.

ونرى أيضا أن هذا الدافع لدى الأندلسيين كان يحدو بهم إلى توسيع نطاق البلدان التي يقصدونها، فهم لا يقتصرون على الحرمين حتى يكثروا من الشيوخ، وليطلعوا على أنواع مختلفة من التجارب والأساليب العلمية في المذاكرة والتلقى، وذلك يؤكد مدى امتزاج الأسباب الدينية بالعلمية في نفوسهم، ويضاف إليه دواعي الاستطلاع، واكتشاف المجهول، والتعرف على

١- ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٠٦- ٤٠٧.

٢- ابن خلدون : المقدمة ، ص٤٠٦- ٤٠٧.

المظاهر الحضارية المعاصرة لهم. وكان العائدون إلى الأندلس من الحرمين يجدون مكانة متميزة في مجتمعهم وتقديراً خاصاً من كل فئات المجتمع وطلبة العلم خاصة[١].

ولا يفوتنا أن نذكر أن هذا الإقبال الكبير على الرحلة كان على الرغم من المخاطر الكثيرة التي يتعرض لها الحجيج وطلبة العلم الأندلسيين ، فقد سجلت بعضها كتب تراجمهم، كما دونها بعضهم ضمن كتابته لأحداث رحلته، كرحلة أبي البقاء البلوي، ورحلة الحسن بن علي القلصادي [٢].

وقد ضرب الأندلسيون أروع الأمثلة في طول الغياب وتحمل الغربة عن بلادهم من أجل العلم، ولجأوا لتخفيف عبء الرحلة الفردية ومشاقها إلى الرحلة الجماعية، وكانت رحلاتهم تستغرق مدداً طويلة يقضونها في البحث والدرس، وبعضهم كانت له أكثر من رحلة للمشرق، وهذا دليل على رغبتهم الشديدة بإثراء معرفتهم العلمية وهمتهم العالية[٣].

ويمكن القول بأن جل من حج من الأندلسيين المشتغلين بالعلم خاصة كان يحرص على أن ينال نصيبه من المجاورة في مكة أو في المدينة أو فيهما معا، وإن لم تستغرق عند بعضهم إلا أسابيعاً أو شهوراً يتاح لهم فيها فرصة الاستفادة والأخذ والعطاء، وتبادل العلم والمعرفة، سواء في الحلقات التي

١- محمد عبد الهادي أبو الأجفان: رحلات الأندلسيين إلى الحرمين، ص ٣٩٠.

٢- رحلة القلصادي : ص ١٢٤- مقدمة تحقيق تاج المغرق، جـ١ ،ص ٥٤.

٣- يوسف بن ياسين: علم التاريخ في الأندلس، ص ٣٩- ص٤٠.

يجلسون لها، أوفي الحلقات التي يعقدونها[١].

على أن بعض هؤلاء الحجاج طالت مجاورته، أما على تواصل غير مقطوع أو على دفعات، فعظمت استفادته كما عظمت إفادته، فكان له مساهمة إلى جانب غيره من أهل مكة والمجاورين فيها من مختلف البلدان الإسلامية.

ومن أبرز العلماء الذين تقدم ذكرهم وعلى رأسهم الغازي بن قيس القرطبي[٢] (ت ١٩٩هـ) ، وعبد الملك بن حبيب السلمي (ت ٢٣٨هـ) ، ويحيى بن يحيى الليثي (ت ٢٤٣هـ) ، وأبو القاسم أحمد بن محمد بن يحيى بن عبيد الله بن أبي عيسى. وغيرهم في مكة كرمها الله، وهذا له دلالة قاطعة على مساهمة الأندلس في الحركة العلمية.

ولو تلمسنا أثر طلاب العلم الأندلسيين في شتى الميادين العلمية، والذين اتجهوا إلى أرض الحرمين للنهل من معين الثقافة الإسلامية لما استطعنا. وقد اعتذر المقري في موسوعته نفح الطيب عن حصر عدد من زار واستقر وجاور فقال (لو أطلقنا عنان الأقلام فيمن عرفناه فقط من هؤلاء الأعلام لطال الكتاب، وكثر الكلام، ولكننا نذكر منهم لمعاً على وجه التوسط)[٣].

وهذا إن دل على شئ فإنه يدل على كثرتهم البالغة، وعلى أن أرض الحرمين كانت تعج بهم كمساهمين فاعلين في نشاطها العلمي كطلبة وكأساتذة .

١- الوراكلي: المجاورون الأندلسيون، ص٥.

٢- المقري: نفح الطيب، جـ٢، ص٥.

٣- المقري: نفح الطيب، جـ٢، ص١٣٦.

فمن الذين جاوروا بمكة أبو محمد عبد الله بن أبي حبيب، وهو بيت علم ووزارة (ت ٥٤٨هـ)[١]. ومنهم أيضاً الفقيه يحيى بن يحيى (ت١٥٢ - ٢٣٤هـ/١٦٩- ٨٤٨م) ،الذي يأتي في مقدمة علماء المالكية الذين عملوا على نشر المذهب المالكي في الأندلس ، وحرصوا على نشره في ميداني الفتيا و القضاء ، فقد رحل يحيى إلى المشرق وسمع من مالك وغيرة من العلماء[٢] ، وبعد أن عاد إلى موطنه تبوأ مكانة رفيعة لدى الأمير هشام بن عبد الرحمن ، ومن بعده ابنه الحكم ، وحفيده عبد الرحمن الأوسط ، وكان ليحيى قولاً مسموعاً في تعيين فقهاء المالكية في مناصب الدولة ووظائف القضاء[٣].

ونعد منهم أيضاً الغازي بن قيس (ت ١٩٩هـ/ ٨٠٤ م) ويذكر أنه هو أول من أدخل موطأ مالك إلى الأندلس، فقد كان مؤدباً ومعلماً بقرطبة، ولما تسنى له الارتحال إلى المشرق أخذ الموطأ عن مالك، والقراءات عن نافع بن أبي نعيم[٤] ،وقد وصف الغازي بقوة الحفظ ونباهة الذاكرة[٥].

ومنهم كذلك زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون (ت ١٩٩هـ/٨٠٤م) وقد ولد هذا الفقيه بقرطبة وأخذ علومه الأولى فيها، ثم شد رحاله إلى المشرق بقصد الحج، وبعد أدائه فريضة الحج اتجه إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم باعتبارها المنبع الأول الأصيل للثقافة الإسلامية،

١- ابن الجزرى: غاية النهاية في طبقات القراء، جـ٢، ص٢.
٢- الخشني : تاريخ علماء الأندلس ، مخطوطة ، ورقة ١٥٨ .
٣- الحميدي: جذوة المقتبس، ص ٣٨٢- ٣٨٣.
٤- ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء، جـ٢، ص ٢.
٥- ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء، جـ٢، ص٢.

فلقي هناك الإمام مالك إمام دار الهجرة وفقيه الحجاز وسيدها في العلم، فروى عنه الموطأ وأخذ عنه الكثير من العلم في ميدان الفقه، ثم عاد إلى وطنه لينشر مذهب أستاذه ويعلمه لطلابه[1].

إلى غير ذلك من العلماء أمثال فرغوس بن العباس، وعيسى بن دينار (ت ٢١٢- ٨٢٧هـ) ، وعبد الملك بن حبيب، وابن وضاح، وبقي بن مخلد (٢٠١هـ- ٢٧٦هـ/٨١٦- ٨٨٩م) الذي ارتحل إلى المشرق ليأخذ من علمائها ثم عاد حاملاً معه ألواناً مختلفة من كتب العلم. وكان لخروج بقي بن مخلد مكانة ومنزلة بسبب علمه الذي انتشر بين الناس، ويعد بقي بن مخلد من أعلام الفقهاء والمحدثين في عصر الإمارة، وكان لرحلته العلمية إلى المشرق أثر كبير في توسيع دائرة علمه وثقافته وعلو مقامه العلمي بين علماء عصره.

ومن أهم ثمار رحلته ما جلبه معه من الكتب المشرقية مثل مصنف ابن أبي شيبه[2]، وكتاب الفقه للشافعي، وتاريخ خليفة بن خياط[3]، وكتابه في الطبقات، وسيرة عمر بن عبدالعزيز[4]. ولا نغفل أن هذا العالم قد قدم مكة وهو قد عب من العلم عباً، وكانت له مكانته كعالم جليل ، فكما أنه أضاف إلى علمه الكثير بمجيئه إليها، فإنه ولابد قد أضاف إلى الحركة العلمية بها الكثير.

١- الحميدي: جذوة المقتبس، ص ٣٨٣.

٢- هو أبو بكر عبد الله بن محمد من المحدثين المصنفين ، ت٢٣٥هـ/٨٤٩م وله كتب منها كتاب السنن في الفقه، وكتاب التفسير و كتاب المسند في الحديث ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٢ .

٣- هو خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني العصفري ، محدث نسابه اخباري صنف التاريخ في عشرة أجزاء ، وله كتاب الطبقات الزركلي : الاعلام ، جـ٢ ، ص ٣١٢.

٤- سعد البشري : الحياة العلمية ،ص٤٠.

ومن أبرز علماء الأندلس الذين برزوا في عصر الإمارة وكانت لهم رحلة إلى المشرق عبد الملك بن حبيب (ت ٢٣٩هـ /٨٥٣ م)، وكانت له رحلة بالمشرق حيث لقي مالكاً عالم المدينة وأخذ عنه وعن أصحابه، وتزود بالكثير من العلم على أيديهم، ثم عاد إلى الأندلس وأسهم في نشاط الحركة الفقهية، فألف كتاباً في الفقه سماه (الواضحة في الحديث والمسائل على أبواب الفقه)[1].

ولم يقتصر علمه على الفقه وعلوم الدين بل كان أديباً ومؤرخاً وفلكيا، ولكن الفقه غلب عليه، وقد عكف الكثير من علماء الأندلس بعد عودتهم من رحلة الحج على دراسة مذهب الإمام مالك وتناولوا كتبه بالبحث والشروح المستفيضة[2].

ومن الفقهاء الذين لهم رحلات إلى المشرق عيسى بن دينار (ت ٢١٢هـ/ ٨٢٧ م) الذي سار على نهج إخوانه الأندلسيين في الرحيل إلى المشرق ليأخذ عن علمائه، ثم ما لبث أن عاد ليتولى منصب الفتيا، وكان لسعة علمه وغزارة معارفه أن وصف بأنه أفقه من يحيى بن يحيى الليثي عالم الأندلس.

وقد أثنى عليه العلماء فقال أحدهم (كان عيسى بن دينار متقنناً مفتقاً، وهو الذي علم المسائل أهل مصرنا وفتقها) وقال آخر: (فقيه الأندلس عيسى بن دينار، وعالمها عبد الملك بن حبيب، وعاقلها يحيى بن يحيى[3]).

١- الحميدي: الجذوة، ص٢٧٢.

٢- ابن حيان: المقتبس، ص٤٨.

٣- ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، جـ١، ص٣٣١.

وكان لهذا الفقيه جهد بارز في ميدان البحث والتأليف، فألف كتاباً قيماً أسماه الهداية وصف بالدقة وشموله للمعاني الفقهية على المذهب المالكي[١]. ويلاحظ في القرن ٣هـ/٩م أن المرتحلين الأندلسيين إلى الحجاز حملوا معهم شيئاً من الإنتاج العلمي الأندلسي لعرضه على العلماء المبرزين بالحجاز، فحينما ارتحل أبو زيد عبد الرحمن بن إبراهيم وكان من موالي قرطبة، ووصف بالعلم و الفقه (ت ٢٥٨هـ/٨٧١م) رحل إلى مكة وحمل معه كتاب البيوع من سماع عيسى بن دينار، وعرضه على ابن الماجشون وقرأه عليه فصلاً فصلاً، فكان لا يمر بفصل إلا قال هذا أحسن و الله عيساك هنا (ويقصد بها عيسى بن دينار). وكذلك فعل طاهر بن عبد العزيز حينما رحل إلى الحجاز إذ حمل معه جزء من مسند بقي بن مخلد وعرضه على محمد بن إسماعيل الصائغ الذي أثنى عليه بقوله (ما اغترف هذا إلا من بحر)[٢].

وتتابع العلماء في تناول الموطأ بالشرح والإيضاح والدرس والتفصيل، وكان للفقيه يحيى بن إبراهيم بن مزين (ت ٢٦٠هـ/٨٧٣م) شرحاً في موطأ مالك وتوضيح مسائله[٣].

إضافة إلى مشاركة الفقيه مالك بن علي القطني الذي صنف كتاباً عالج فيه الكثير من مسائل الفقه على المذهب المالكي، ووصف كتابه بالدقة والقيمة العلمية الكبرى[٤].

١- المقري: النفح، جـ٣، ص١٦٧.

٢- ابن الفرضي : تاريخ ، جـ٢ ، ص٥٥٦ ،ابن حيان : المقتبس ، تحقيق محمود على مكي ، ص ٢٦٣ ، خالد البكر : الرحلة ، ص ٦٨ .

٣- الضبي: بغية الملتمس، ص٤٩٧- المقرى: جـ٣، / ص ١٦٧- ١٦٨.

٤- المقرى: جـ٣ ص ١٦٨.

والحقيقة أن الحياة العلمية في الأندلس شهدت تنامياً مطرداً خلال القرن ٣هـ/٩م لما كان للأندلسيين من المثابرة و الصبر على الدرس و تحصيل العلم و التأليف في حقوله المختلفة ، مما جعلهم يحظون باحترام واسع لدى الأوساط العلمية في بلاد الحرمين، حتى أن أحد علماء مكة في القرن ٣هـ و يدعى علي بن عبد العزيز (ت ٢٨٦هـ/٨٩٩م) لم يستنكف أن يسمع من أحد طلابه الأندلسيين، وهو يوسف بن محمد المغامي (ت ٢٨٨هـ/٩٠٠م[١]) وذلك حينما رحل الأخير إلى الجزيرة العربية للمرة الثانية وقد صار إماماً، بل مضى إلى أبعد من ذلك فكان ينصح طلاب العلم بالاستفادة منه أثناء مجاورته و يسميه (فقيه الحرمين)[٢] .

ولم يحل نشاط الحركة العلمية في الأندلس خلال القرن ٣هـ /٩م دون تدفق الرحلات العلمية من الأندلس إلى الجزيرة العربية ، ولقد تتابعت أفواج المرتحلين إلى مكة لملاقاة علمائها المقيمين منهم و المجاورين . ولكن يتجلى نشاط المرتحلين الأندلسيين لملاقاة العلماء من مختلف مناطق الجزيرة العربية بصورة أكبر خلال القرن ٤هـ/١٠م، ففي تلك الفترة شاع حب الرحلات العلمية في الأندلس بشكل قلما وجدت له نظيراً في سائر الأقاليم الإسلامية ، و يبدو أن سلوك السلطات الأندلسية في تشجيع الحركة العلمية خلال تلك الفترة كان له أثر عظيم في توجيه نشاط المرتحلين الأندلسيين نحو البحث عن العلماء المرموقين في مختلف المناطق التي حلوا بها ، وتحصيل أكبر قدر من العلوم، وقد استمر ازدهار الحياة العلمية في الأندلس في القرن ٥هـ/١١م ، ولم

١- ابن الفرضي : تاريخ ، جـ٢ ، ص٩٣٣ .
٢- خالد البكر : الرحلة ، ص ٦٩ .

يتأثر بسقوط الخلافة الأموية ٤٢٢ هـ/١٠٣٠م، بل يمكن القول بأنها نشطت عن ذي قبل؛ إذ حرص ملوك الطوائف على تزيين بلاطهم بكوكبة من العلماء في مختلف حقول العلم[١] .

و على الرغم من أن استمرار تدفق الرحلات العلمية الأندلسية في هذا العصر إلى أرض الحرمين يعد مظهراً من مظاهر الازدهار العلمي في الأندلس، إلا أننا نستشف مما تعرضه المصادر التي بين أيدينا أن ثمة انكماش في المساحة التي غطتها تلك الرحلات من أرض الجزيرة . إذ يكاد يقتصر المرتحلون الأندلسيون على مكة وحدها، و الاكتفاء بما يسمعونه من علمائها.

ولقد طرأ تطور جديد على ملامح الرحلات العلمية الأندلسية في القرن ٥هـ/١١م وذلك في اتجاه قسم من المرتحلين الأندلسيين إلى تدوين نشاطاتهم العلمية في المشرق الإسلامي، و لا سيما توثيق أسماء الشيوخ الذين سمعوهم ، و الكتب التي استجازوها منهم، فنشأ عندئذ مايسمى بكتب (الفهارس)[٢] (أو الرحلات الفهرسية)[٣] السالفة الذكر ، والتي كانت بمثابة التمهيد لتدوين الرحلات الوصفية التي ظهرت في الأندلس بعد قرن من الزمان .

١- إن الحركة العلمية بالأندلس كانت في عهد ملوك الطوائف تمر بحركة اندفاع قوية ، وأن العلوم و الآداب قد ازدهرت في ظلهم و رعاية ملوكهم ازدهاراً يدعو إلى الإعجاب ،وحفل بجمهرة كبيرة من رجال العلم و الأدب و لقد بذل ملوك الطائف رعايتها لطائفة كبيرة من العلماء و الأدباء الأندلسيين و استخدم كثيراً منهم في مناصب الوزارة والكتابة . انظر عبد الله عنان : عصر المرابطين و الموحدين ، جـ٣، ص٤٣٩.

٢- خالد البكر : الرحلة الأندلسية ، ص ٧٤ .

٣- ابن خير الأشبيلي : فهرسة مارواه من شيوخه ، ص ٢٤٩ .

وهكذا يبدو بوضوح شغف الأندلسيين بالرحلة إلى أرض الحرمين ، والتي كان لها أثر في ثقافتهم، وجعلتهم على صلة بإخوانهم في الدين يأخذون عنهم ويتذاكرون معهم، وأتاحت للإشعاع الأندلسي[١] أن يبرز في الخارج وفي أرض الحرمين بالذات وبذلك تحقق التلاقي الحضاري والتآزر العلمي، وزكا العطاء في مختلف المجالات.

***

أهمية الرحلات إلى أرض الحرمين

رغم كثرة الراحلين من الأندلس إلى الحرمين فإن الذين دونوا رحلاتهم قليلون إلا أن هذه الرحلات المدونة على قلتها كانت عظيمة الفائدة ، من أبرز المدونين لرحلتهم أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي (ت ٤٧٤ هـ) الذي سجل كتابه (فرق الفقهاء) جملة هامة من أخبار رحلته الحجازية.

ومن أشهر الرحلات المدونة:

- "ترتيب الرحلة للترغيب في الملة"[٢] لأبي بكر بن العربي الإشبيلي (ت ٥٤٣هـ).
- "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار" لأبي الحسين محمد بن أحمد الكناني المعروف بابن جبير (ت ٦١٤هـ).

١- محمد الهادي أبو الأجفان: رحلات الأندلسيين إلى الحرمين، ص ٤١٠- ٤١١.

٢- كتاب ترتيب الرحلة " لابن العربي لخص في مقدمته كتاب قانون التأويل " وهكذا يعطينا قانون التأويل " صورة عن أصل كتاب ترتيب الرحلة للترغيب في الملة "

- "تاج المفرق في تحلية علماء المشرق" لأبي البقاء خالد بن عيسى البلوي

- "تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب" لأبي الحسن علي القلصادي (ت٨٩١هـ).

وهذه الرحلات لها قيمة توثيقية جليلة، فهي مصدر هام يلقى أضواء ساطعة على أحداث في عهود كتابتها قد تكون مما أهمله التاريخ العام، وهي تعرِّف بجانب من النشاط العلمي في البلدان الواقعة في طريق الحج، وتصور العلاقة بين الطلبة ومشيختهم، وتحتفظ بأشعار نادرة وطرائف هامة، وتعرف بالكتب المتداولة.

مما يساعدنا على تقويم ثقافة العصر، كما تمكننا الرحلات المدونة بذلك من تصحيح أخطاء وقع فيها المؤرخون والمترجمون.

أما بالنسبة للحرمين فإن فائدة هذه المدونات تزداد إذ تكشف عن ألوان من حضارتهما بوصف العمارة، والحديث عن العادات، وعن سائر ما يشاهد أيام الموسم وعند الزيارة، وذكر أنماط الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية، مع ذكر الشيوخ بهما من المجاورين والوافدين.

وتعتبر الرحلات المدونة للأندلسيين أحد روافد أدب الرحلات، وكذلك نعد من روافدها فيض الأشعار التي جاءت بها قرائح الأندلسيين، وهكذا تعد الرحلات الأندلسية إلى الحرمين رافد من روافد الأدب الأندلسي والتراث المأثور.

الرحلات المغربية والأندلسية مصدر تاريخي لمكة والحجاز

لقد اعتنى الرحالة المغاربة والأندلسيون بتسجيل كل المعلومات والحقائق التي شاهدوها بمكة والحجاز من وقائع تاريخية، وأوصاف جغرافية، وملاحظات اجتماعية، فأصبحت مؤلفاتهم مصدراً للدارسين والباحثين في التاريخ السياسي والثقافي والاجتماعي لمكة والحجاز، ومصدراً لجغرافية المنطقة وأوصافها الطبيعية.

والقيمة التاريخية لهذه المؤلفات لا تقف عند القضايا التاريخية التقليدية كذكر الأوضاع السياسية والاقتصادية وأحوال الأمراء والنظم السياسية والإدارية والقضائية، بل تتجاوزها إلى ذكر أوصاف وتفاصيل دقيقة عن العلم والعلماء وعن المجتمع وأحواله وعن العادات الاجتماعية. أما وصف دقائق المسجد والكعبة فوصف دقيق لا يترك فيه شيء[١]. ومن الجوانب الهامة التي اعتنى بها علماء المغرب والأندلس التعرف على علمائها والتعريف بهم، وكانوا يفعلون هذا مع سائر العواصم العلمية الإسلامية التي يزرونها، فيعرفوا بالعلماء الذين اجتمعوا بهم أو جلسوا في حلقاتهم أو أخذوا عنهم مؤلفاتهم ومروياتهم. وعلى رأس هؤلاء علماء الحرمين مكة والمدينة[٢].

ولا تخلو هذه التراجم من فوائد ومباحث في مختلف العلوم حسب الاختصاصات والاهتمامات العلمية للمؤلف وللعلماء المعرف بهم، ومعلوم أن

١- للمزيد عن هذه الرحلات وتفاصيلها انظر عواطف نواب: الرحلات المغربية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين – دراسة تحليلية مقارنة، رسالة ماجستير، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

٢- أحمد الريسوني: مكة المكرمة في الثقافة المغربية، ص٦- ١٣.

عدداً غير قليل من علماء مكة إنما هم علماء مجاورون قادمون من مختلف البلدان الإسلامية.

ولقد اعتبر عدد من الباحثين كتب الرحلات المغربية والأندلسية مصدراً تاريخياً وجغرافياً[١] ضافياً عن مكة خاصة والحجاز عامة.

***

المجاورة:

فنظراً لأهمية مكة منذ أقدم العصور باعتبارها حرماً آمناً، فقد وفد إليها ضيوف الرحمن من كل حدب وصوب، تحدثنا فيما مضى عن المجاورة ومجاورة الأندلسيين بالذات في عجالة، ونريد هنا أن نلقي عليها مزيداً من الضوء، لأنها من أهم مظاهر إسهام الأندلسيين في الحركة العلمية بمكة و المدينة .

فنظراً لأهمية مكة منذ أقدم العصور باعتبارها حرماً آمناً،فقد وفد إليها ضيوف الرحمن من كل حدب وصوب ، ومنهم أولئك الذين شغلوا بطلب العلم مع رغبتهم في القيام بالفريضة، ونظراً لما يقتضيه طلب العلم ويتطلبه من

١- تعد الرحلات المغربية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع و الثامن الهجريين و من أبرز كتب الرحالة المغاربة و الأندلسيين ابن جبير (ت٦١٤ هـ من بعده) و الرعيني(ت ٦٦٦هـ) و ابن رشيد (ت٧٢١ هـ) و العبدري و التجيبي (ت ٧٣٠هـ) و ابن جابر الوادي آشي (ت ٧٤٩هـ) و ابن بطوطة (ت ٧٧٠هـ) و البلوي (ت ٧٨٠هـ) و يعد ابن العربي أول من وضع أسس الرحلات بالغرب الإسلامي ، فهو أول من وصف رحلته إلى المشرق وصفاً دقيقاً ، تتبع مراحلها ، وذكر البلاد التي زارها

انظر محمد أبو الأجفان : رحلات الأندلسيين إلى الحرمين ، ص ٤٠٦.

أحمد الريسوني : مكة المكرمة في الثقافة المغربية ، ص ٦ .

التريث و التدقيق، فقد تحول طلبة العلم هؤلاء إلى الاستيطان و الإقامة في بيت الله ؛ مما نشأ عنه ظاهرة عرفت بظاهرة المجاورة والتي تمثلت في بروز شريحة اجتماعية مميزة من أهل العلم والصلاح برزت في مكة وعرف أفرادها باسم المجاورين[١].

والمجاورة تعني المساكنة والمصاقبة والمقاربة (والجار هو الذي يجاورك بيتاً ببيت)

ومجـــــاورة مكة يقصد بها النزول بجوار البيت والإقامة بجانبه المشرف[٢].

ومع أنه ليس لدينا إحصائية دقيقة بعدد المجاورين من كل البقاع الإسلامية، إلا أننا نقدر أن نسبة الأندلسيين كانت من النسب الواضحة، كما عرف عن أهل الأندلس وخاصة في عصورها الأولى من الحرص على طلب العلم من منابعة الأصيلة وخصوصاً من بيت الله ومسجد رسوله صلى الله عليه وسلم .

وكانت مكة كما أسلفنا تتميز بالنشاط العلمي إذ كان كل مسجد منهما بمثابة جامعة كبيرة متنوعة العلوم، تعقد فيها الحلقات العلمية يومياً وهذه الحلقات مفتوحة لكل راغب في طلب العلم، غير مرتبطة بوقت محدد، ولا تفرض فيها مادة بعينها، ويستطيع طالب العلم أن ينتقل من حلقة لأخرى إلى أن يستقر في الحلقة الملائمة لها، ويتصدر الشيخ هذه الحلقات

١- حسن الوراكلي: المجاورون الأندلسيون، ص٢.

٢- محمد مرتضى الزبيدي: تاج العروس مادة جور، ص٦- ١٣.

وحوله طلبة العلم يستمعون، ويناقشونه ويناقشهم ويستنبطون من الآراء والأقوال الكثير المفيد.

ولا ريب أن مكة والمدينة كانتا منتهى الحركة العلمية بسبب الرحلات والمجاورة، وهي ميزة انفردت بها عن سائر الأقطار الإسلامية، حتى قيل أن بعض العلماء إذا افتقد كتاباً ولم يستطع الحصول عليه رغم تطوافه في البلدان، لجأ إلى الإعلان عنه في الحج طمعاً في معرفة مكانه والوصول إليه[1]

وقد أشار الرحالة المغاربة والأندلسيون كابن جبير إلى كثرة حلقات الدرس بالمسجد الحرام فيقول في وصفه بأنه (غاص بحلقات الدرس).

ويبدو أن مكانة المسجد الحرام بدأت منذ أن تصدر ابن عباس للجلوس والتدريس فيه حتى لقب بحبر الأمة.

ثم تنوعت حلقات العلم من فقه، وشعر، وتفسير القرآن، وحساب، وتأويل، ومغازي، وأيام العرب، ومنذ تلك الفترة برزت المكانة المرموقة للمسجد الحرام كمقر للتدريس والفتيا، واستمر الوضع بتصدر كبار العلماء[2]

وأشاد الرحالة الأندلسيون إلى تنوع حلقات العلم في المسجد الحرام[3].

ولم تقتصر فائدة الدروس والحلقات في المسجد الحرام على المجاورين

١- أحمد شلبي: موسوعة النظم والحضارة، جـ٥، ص٣١٤.

٢- ابن جبير: الرحلة، ص٦٨.

٣- التجيبي: مستفاد الرحلة، ص ٣٨٢- ٣٣٠.

من الأندلسيين فقط، بل نهل منها علماء من شتى البقاع في العالم الإسلامي الذين طاب لهم البقاء في أرض الحرمين يدرسون ويطمئنون إلى جواره، وكثيراً ما نقرأ في كتب تراجم علماء تلك الفترة هذه العبارات (ورحل حاجاً فحضر مجالس الحديث بالحرمين الشريفين وتلقى العلم على أئمة العلماء والفقهاء في العواصم الإسلامية)[١]. لذا شكلت المجاورة بمكة فرصة عظيمة لتجمع نخبة العلماء المسلمين من كافة أنحاء العالم الإسلامي، وتتفق النصوص على الإشادة بهم، وذكر مناقبهم وأخلاقهم الفاضلة، وما كانوا يتميزون به من حميد السجايا، ويمكن تأكيد فضلهم وحسن أخلاقهم من خلال ما ورد في كتاب ابن الفرضي في تاريخ علماء الأندلس، ولنستمع إلى جملة من الصفات التي وصف بها هؤلاء العلماء يقول " أما أصبغ بن على بن حكيم فكان زاهداً فاضلاً مجتهداً وأما بدر مولى زيد فكان خيراً عفيفاً، أما عبد الله بن عبد السلام فكان من الذين انقطعوا إلى الله عز وجل، أما عبد الحميد بن محمد الزهيري فكان شيخاً فاضلاً كثير الصلاة، أما قاسم بن أحمد بن جحدر فكان ورعاً زاهداً، " وإلى غير ذلك في قائمة العلماء[٢].

وشكلت المجاورة عقد حلقات دراسية ومناظرات في مكة، ومن تصفح سير العلماء بمكة تثبت أن معظمهم كان قد حصل على رصيد علمي غزير قبل رحلته إلى مكة، غير أنه كان يطمح إلى المزيد من التبحر في مختلف العلوم، ويصبو في نفس الوقت إلى تقديم ما يستطيع من خدمات علمية للحجاج الوافدين على مكة.

١- ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، جـ٢ ، ص٢٣١ .
القاضي عياض : كتاب الفنية ، ص ١٥٣ .

٢- ابن الفرضى: تاريخ علماء الأندلس، جـ١، ص ٢٨ ، ص ٣٠ .

ويذكر ابن الفرضي حين يترجم للعالم الأندلسي اصبغ بن علي بن حكيم أنه كان له حظ من العلم وهو مقيم بالأندلس، حيث سمع من عدة شيوخ أندلسيين، إلا أنه بعد رحلته إلى الحج سنة ٣٨٤ هـ أبى العودة للأندلس، وفضل مجاورة الحرم للمزيد من التبحر في العلوم التي كان يعقدها علماء مكة مثل أبي الفضل الهروي، وعبد الله بن الجارود، ومحمد بن علي الجوهري، وأبي سعيد الأعرابي، والحسن بن نافع الخزاعي، وأحمد بن حمزه، وغيرهم كثير من كبار العلماء[(١)].

وكان الأندلسيون الذين قصدوا مكة للمجاورة وطلب العلم يدونون العلوم التي يتلقونها من أفواه العلماء المجاورين، وفي المقابل كان علماء الأندلس يعقدون بدورهم حلقات علمية يحضرها عدد من طلاب العلم ومحبيه، ومن أمثلة ذلك الفقيه الأندلسي قاسم بن أحمد بن جحدر الذي كان يقصده طلبة العلم بفضل ما حازه من شهرة علمية، فيذكر ابن الفرضي (أنه جاور بمكة واستوطنها وعلا بها ذكره ورحل الناس إليه)[(٢)].

وكذلك الفقيه عبد الرحمن بن عبد الصمد الذي جاور بمكة بعد حجه سنة ٥١٩ هـ فأخذ عنه طلبة العلم وغيرهم كثير، نرى من كثرة الشيوخ الذين تلقى عنهم المجاورون ما يدل على أن التلقي جاوز موسم الحج، فقد ذكر أن إبراهيم بن حارث بن عبد الملك أنه تلقى العلم بمكة عن طائفة كبيرة من الشيوخ منهم أبو يعقوب الشيباني، وأبو حفص ابن عراك، وأبو القاسم السقطي وغيرهم.

١- ابن الفرضى: تاريخ علماء الأندلس، جـ١، ص ٨٢- ١٠٠.

٢- نفس المصدر السابق: تاريخ علماء الأندلس، جـ، ص ٣٦٠.

وكانت هذه الحلقات الدراسية بمثابة مجمع علمي يحضره العلماء من مختلف الأقطار فيلتقون هناك، ويتبادلون فيما بينهم الأفكار والعلوم والمعارف، فقد التقى علماء الغرب بالعلماء من عمان، والتقى علماء الأندلس بعلماء من العراق ناهيك عن التقاء جميع هؤلاء بعلماء وشيوخ مصر من المجاورين بمكة [1].

وكانت الحلقات الدراسية تعج بالمناظرات وتناقش فيها شتى القضايا من عقدية وأدبية وتاريخية [2]

وكانت هذه الحلقات الدراسية تعقد إما بالقرب من أحد أبواب الحرم المكي مثل باب شيبة، وباب الصفا، أو داخل المسجد، أو كانت تضرب الخيام بساحات مكة لاستقبال طلبة العلم.

وإلى جانب السماع والرواية التي حفلت بها الحلقات الدراسية في مكة هناك مظهر ثقافي آخر من مظاهر ثقافة المجاورة.

ويتعلق الأمر بحمل الكتب من قبل طلاب العلم والمعرفة عن شيوخهم المجاورين، وفي هذا الصدد يذكر القاضي عياض عن أحد علماء مكة المجاورين فيقول : (حدث عنه جماعة من الأندلسيين والغرباء من أصحابنا، وحملت عنه الكتب الكبار والمصنفات الصحيحة، وكان مسناً وتوفي بمكة المكرمة وقد نيف على ثمانين سنة في حدود ثلاثين وخمسمائة) [3]. وأما الحرص على الملازمة والمصاحبة الكثيرة لمشايخ الحرم ويتجلى في السماع

١- ابن عطيه: فهرست ابن عطيه، ص ٧٥٤- ٩٣.
٢- إبراهيم القادري: العلماء المجاورون، ص١١.
٣- القاضي عياض: كتاب الفنية، ص١٤٣.

لهؤلاء المشايخ والأخذ عنهم، ولا أعتقد أن موسم الحج كان كافياً لأن يسمع فيه كتاب كالبخاري ومسلم!! ولكن الراجح أن هذا السماع قد سبق موسم الحج بشهور، وامتد بعده لشهور، وربما تعدى السنة أو السنتين. بالإضافة إلى كثرة الشيوخ الذين تلقى عنهم المجاورون كما أسلفنا . وهكذا يمكننا القول أن العلماء المجاورين بمكة شكلوا ظاهرة علمية فريدة ساهمت في جعل مكة محط أنظار علماء المسلمين، وطلبة العلم والمعرفة، ومركز إشعاع ثقافي حتى أصبحت مجمعاً للعلماء، وانتشرت فيها كل ألوان المعارف، وقصدها من كل مكان[1]

والمجاورون ليسوا من بلدة واحدة بل من مختلف أقطار العالم الإسلامي مثل الأندلس والمغرب، ومصر، والشام، والعراق، واليمن وغيرها.

وقد وفق الله أهل مكة لخدمة بيت الله الحرام، وتيسير إقامة طلبة العلم والمجاورين على مر العصور، فقد قيض الله لهم من يخدمهم ويقوم على أمرهم وتوفير ما يحتاجون إليه [2] .

وقد أشار الشيخ أبو مروان الأندلسي إلى أن مكة هناك من يقصدها طلباً للرزق، وآخرون طلباً للأمان أو التبرك أو الشفاء من حزن أو مرض ألم بهم.

والمجاورة لبيت الله الحرام من قبل علماء الأندلس تراوحت بين الطول والقصر، فكان أقصرها لا يتعدى موسم الحج الذي يتراوح بين الشهرين والثلاثة، وأوسطها يتجاوز السنة والسنتين، بينما يمثل أطولها أولئك الذين

١- إبراهيم القادري: العلماء المجاورون، ص١١.

٢- العربي الشريف: مكة والمجاورن، ص٤.

اختاروا الإقامة الدائمة أو شبه الدائمة في جوار بيت الله الحرام.

فمن أمثلة المجاورة القصيرة ما ذكره ابن الخطيب[١] أن محمد بن عبد الرحمن اللخمي أقام بمكة شرفها الله من شهر رمضان المبارك إلى انقضاء الموسم سنة ٦٨٣ هـ، أما المجاورة المتوسطة وهي التي تراوحت بين السنة الواحدة والثلاث سنوات، وكان أغلب هذا النوع من الإقامة بقصد طلب العلم وملاقاة العلماء والأخذ عن أكبر عدد من الشيوخ؛ ليرجع إلى بلده ذا مكانة علمية مرموقة، وقد ظل أهل الأندلس ينظرون إلى المشارقة نظرة إكبار وإعجاب وعدوا من لم يرحل إلى المشرق لتلقي العلم غير مكتمل الأداة.

ومعظم المصادر تصرح بوضوح أن المجاورة كانت تأتي بعد أداء الفريضة (الحج) فذكر ابن الأبار[٢] في ترجمة عبد الله بن عيسى بن أبي حبيب من أنه حج سنة ٥٢٧ هـ وأقام بمكة مجاور، و حج ثانية سنة ٥٢٨ هـ ولقى بمكة عتيق الأريولي فحمل عنه. وفي ترجمة الأنصاري محمد بن يوسف بأنه رحل للحج سنة ٥٦٣ هـ، وأدى الفريضة سنة ٥٦٤ هـ، وحج ثلاث حجات متواليات، وفي ترجمة إسماعيل بن محمد بن خزرج حددت المدة بشكل أدق حيث ذكر أنه رحل إلى المشرق سنة ٤١٠ هـ، وحج ٤١١هـ، وجاور بمكة وكتب العلم عن جماعة من العلماء، وانصرف إلى بلدة آخر سنة ٤١٢ هـ[٣].

وهناك من اختار مجاورة البيت مجاورة دائمة أو شبه دائمة، فمنهم من قضى سنوات عديدة مجاوراً للكعبة ثم عاد إلى وطنه، ومنهم من قضى نحبه،

١- ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، جـ٢، ص٤٤٦.

٢- ابن الآبار: التكملة، جـ٢، ص ٥٢٢٢.

٣- ابن بشكوال : الصلة، جـ١، ص١٠٣.

ولكن يلاحظ أن عدد الذين اختاروا هذا النوع من الإقامة قليل إذا قورن بأعداد المجاورين لمدة يسيرة أو متوسطة. وقد طالت الإقامة ببعض العلماء الأندلسيين إلى درجة أنهم تولوا مناصب بالحرم من إمامة، أو خطابة، أو إقامة الآذان، أو التدريس، فمنهم أبو الطاهر الأندلسي الذي رحل سنة ٤٠٣ هـ فلم يزل بمكة إلى حدود سنة ٤٥٠ هـ فجاور بمكة طويلاً وأستقر بها، أي أن مجاورته جاوزت الأربعين عاماً. كذلك جاور عبد الله بن وهب مدة إحدى عشر عاماً، وجاور محمد بن طاهر القيسي مدة ثمانية أعوام[١].

وهناك من سكتت المصادر عن تحديد مدة مجاورتهم، منهم غالب الأنصاري الذي اكتفى المؤرخ بذكر أنه جاور بمكة سنين بعد أن جاوز عمره ستين عاماً[٢].

وأما الذين قضـــوا نحبهم فيها فمنهم سعدون بن محمد الزهري وغيره[٣].

وكان العائدون إلى الأندلس من رحلة الحج يجدون مكانة متميزة، ومن مظاهر ذلك حرص المترجمين منهم على التنصيص على الحج وعدد مراته ضمن كل ترجمة، ومنهم من كان يحرص على أن ينعت بالحاج مثل الشيخ ابن محمد بدر بن إبراهيم، وهو عالم رحل إلى المشرق فحج وبعد عودته أصبح معروفاً بالحاج بدر[٤].وللعائدين للأندلس الحاملين للمعرفة فضل كبير جعلهم

١- التكملة، جـ٢، ص ١٤٦، ابن الفرضي، جـ١، ص٤٢٠.
٢- ابن الفرضي: جـ١، ص ٢٢٠.
٣- ابن الفرضي: جـ١، ص٢٢٠.
٤- محمد أبو الأجفان : رحلات الأندلسيين إلى الحرمين ، ص٣٩٠.

يستحقون عن جدارة عبارات الثناء بحقهم، والتي تفيض بها كتب التراجم وفاءً لجهودهم في تحمل المشاق و الغربة من أجل العلم و بثه في الأندلس، وأصبح هؤلاء يشكلون فئة علمية تدرج في كتب التراجم التي تعنى برجال الأندلس . فابن الفرضي[1] حين وضع خطة كتابه ترجم ضمن من ترجم لهم من كانت له رحلة إلى المشرق، و عمن روى، و من أجل من لقي. و قد اعترف المؤرخون إقراراً بفضلهم بأنهم قد أدخلوا الأندلس علماً كبيراً، فنجد عبارة (الوسام) تتردد مع ذكر هؤلاء العلماء ومنهم على سبيل المثال بشر بن حبيب المعروف بدحون (ت٢٠٦هـ / ٢٣٨هـ) ومحمد بن عبد السلام الخشني (ت٢٧٦هـ / ٨٨٩م) ، ومحمد بن عبد الله بن الغازي بن قبيس(ت ٢٩٦هـ/٩٠٨م)، ومحفوظ بن حفاظ بن محفوظ(ت ٣٠٠هـ/٩١٢م)، وقاسم بن ثابت السرقسطي (ت ٣٠٢هـ/٩١٤م) وغيرهم كثير.

وما أن يعود هؤلاء إلى الأندلس حتى يتجمهر الطلبة عليهم طالبين التزود من معارفهم التي حصلوا عليها[2].

وقد عادت هذه المجاورة لبيت الله العتيق بمددها المتفاوتة على الأندلس والعالم الإسلامي بالخير العميم، حيث تمكن من عاد من المجاورين إلى بلده من نشر العلوم النافعة، والذب عن الدين، والإسهام في بناء الدولة الإسلامية.

كما عادت على المجاورين أنفسهم بالخير العميم، وأفادوا من المدة التي قضوها في بيت الله الحرام فتولى عدد منهم القضاء بعد عودتهم إلى

١- ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، جـ٢ ، ص٦٣- جذوة المقتبس ، جـ١ ، ص١١٧.

٢- يوسف بن ياسين : علم التاريخ ، ص ٤٢ ، ٤٣.

الأندلس مثل الحسين بن يحيى التجيبي[١]، ومنهم من تقلد خطة الشورى فكان فقيهاً مشاوراً بعد انصرافه إلى بلده مثل الفقيه خلف بن فرج بن مخلوف[٢]، ومنهم من تولى الصلاة والخطبة في مساجد الأندلس مثل محمد بن إبراهيم اللخمي، حيث تصدر آخرون للإفتاء وإفادة الناس بما تلقوه أثناء مجاورتهم للحرم الشريف، بل إن منهم من تتلمذ له أساتذة أجلاء كان لهم صيتهم في الأندلس والمشرق مثل أحمد بن عمر القدري[٣] الذي رجع إلى بلده بعد المجاورة، وسمع الناس منه كثيراً وحدث عنه كبار العلماء وأصبح كثير من العلماء الذين عادوا إلى أوطانهم بعد أن صقلت مكانتهم العلمية تشد إليهم الرحال للأخذ عنهم، وبرز منهم علماء زهاد ساهموا في حركة الجهاد الإسلامي ضد الغزوات النصرانية في الأندلس[٤].

وصفوة القول أن المجاورين شكلوا ظاهرة علمية فريدة ساهمت في جعل مكة محط أنظار علماء المسلمين، وطلبة العلم والمعرفة، ومركز إشعاع ثقافي حتى أصبحت مجمعاً للعلماء من كافة أصقاع العالم الإسلامي، ووسام علمي يزيد مكانة العالم المسلم ويميزه عن سائر أقرانه من العلماء، فانتشرت بها كل ألوان الثقافة والمعرفة، واستوطنها العلماء، وعقدوا بها الحلقات والمناظرات، وقصدها الطلاب للحصول على شهادات علمية، وحملوا منها الكتب إلى أوطانهم، مما جعل مكة تتبوأ مكانة الريادة العلمية، وتصبح بحق عاصمة للثقافة الإسلامية.

١- الصلة، جـ١، ص٣٧.

٢- ابن الفرضي: جـ١، ص٢١٧.

٣- الصلة، جـ٢، ص٣٣٩.

٤- إبراهيم عبد القادر : العلماء المجاورون، ص١٤.

الخاتمة:

١) إن من أبهى و أعظم خصائص الإسلام ارتباط عبادته و شعائره بالتربية و التثقيف و الإصلاح و الدفع إلى الخيرات والبعد عن الرذائل فكانت أماكن العبادة مدارس للثقافة و العلم و مراكز توجيه وإصلاح للمسلمين، و لقد تعود المسلمون منذ العهد النبوي الأول أن يكون الحرم في موسم الحج موطناً للقاء بين العلماء و المتعلمين للمعرفة و التفقه، فقد كان رسول الله خلال حجة الوداع قائماً على التعليم و التثقيف يسأل فيجيب ويتجمع حوله الناس فيبلغ المعرفة والهداية، إلا أن تفقيهه ذلك لم يكن ليصل جميع المسلمين فدعا الناس إلى إبلاغ المعرفة و تداولها و العمل على وصولها إلى كافة الناس.

٢) ارتبط موسم الحج من بدايات ظهوره ارتباطاً وثيقاً بالتثقيف و التعليم و ترتيب التعامل الإجتماعي و العبادة، ودأب المسلمون على ذلك منذ فجر الدعوة إلى يومنا هذا؛ فإذا مكة تصبح عاصمة للثقافة وتتعاهد مع المدينة لاحتضان أولى المدارس العلمية الإسلامية التي شرعت الطريق، ونهجت المناهج، و غرست البذرات التي أنتجت ثمار المعرفة الإسلامية فيها و في الأمصار الأخرى.

٣) ففي مكة نشأت أولى المدارس العلمية على أسس عظيمة على يد حبر الأمة عبد الله ابن عباس، ثم تتالت بعده الطبقات من أعلام المكيين فكانت طبقة مجاهد بن جبر، وعطاء ابن أبي رباح و غيرهم، ثم تلتها

طبقة ضمت سفيان بن عيينه، و الأوزاعي، و الفضيل ابن عياض وغيرهم ممن أخذ عنهم الأئمة و خاصة الشافعي و أحمد ابن حنبل .

٤) ترسخ الطابع العلمي لمكة فأصبحت عاصمة الثقافة لأسباب رئيسية فالحج في مكة يأتي إليه الناس من كل حدب و صوب، و فيه يلتقي الحجيج من عامة و مثقفين و علماء، فيأتي كل منهم بزاده العلمي وقدرته الثقافية، و تجاربه الحضارية، و تطورات مجتمعه و تغيراته، فيكون لقاؤهم في مؤتمرهم السنوي مباركاً و مفيداً. ولقد قدمت مكة للثقافة الإسلامية العلماء و المثقفين و مشاهير رجال الفكر. وتستبين لنا أهمية هذا الزاد البشري من العلماء إذا ما طالعنا كتب التراجم و الطبقات .

٥) بدأ الأندلسيين هجراتهم إلى الحرمين الشريفين بمكة و المدينة منذ القرن ٢ هـ. و بعد استقرار الداخل في الأندلس عام ١٣٨هـ/١٠٥٥م شغف الأندلسيون بالرحلات التي كانت لها أثر في تيار ثقافتهم، وجعلتهم على صلة بإخوانهم في الدين يأخذون عنهم، و يتذاكرون معهم ، و اتاحت للإشعاع الأندلسي أن يبرز في الخارج، و بذلك تحقق التلاقح الحضاري و التآزر العلمي، و زكاء العطاء في مختلف المجالات، و لم تكن الصعوبات لتصدهم عن القيام بالرحلة الحجازية التي يدفع إليها الوازع الديني و الولوع بالمعرفة.

٦) دَوَّن الأندلسيون رحلتهم في كتب مهمة كان لها أثر كبير في معرفة أحوال العالم الإسلامي في تلك الفترة .

٧) بروز ظاهرة المجاورين في أرض الحرمين التي كان لها أكبر الأثر في تشكيل حلقات دراسية، ومناظرات علمية، و تراوحت مدة إقامتهم بين الطول و القصر. فكان أقصرها لا يتعدى موسم الحج، وأوسطها يتجاوز السنة و السنتين، بينما يمثل أطولها أولئك الذين اختاروا الإقامة الدائمة أو شبه الدائمة في جوار بيت الله الحرام، ورغبوا في مصاحبة كبار العلماء والتتلمذ على أيديهم. و لقد وجد هؤلاء التربة الخصبة و العيش الكريم بعد عودتهم إلى بلادهم، حيث تبؤوا مراكز قيادية هامة، و امتد تأثيرهم في الأندلس و خارجها .

المصادر و المراجع

١- ابن الابار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت٦٥٨هـ)

التكملة لكتاب الصلة. نشره عزت العطار الحسيني، القاهرة الخانجي ، والمتني ببغداد ١٩٥٦م.

٢- ابن بشكوال : أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت٥٧٨هـ)

الصلة في تاريخ أئمة الأندلس و علمائهم و محدثهم و فقهائهم و أدبائهم ، نشره عزت العطار الحسيني ،ط٥، القاهرة ،مكتبة الخانجي ، ١٩٩٤م.

٣- البلوي : خالد بن عيسى (ت بعد ٧٦٧هـ)

تاج المفرق في تحلية علماء المشرق ، تحقيق الحسن السامح ، المغرب ، صندوق إحياء التراث.

٤- التجيبي السبتي : القاسم بن يوسف (ت٧٢١هـ)

مستفاد الرحلة و الاغتراب ، تحقيق عبد الحفيظ منصور ، ليبيا ، تونس ، الدار العربية للكتاب ، ١٩٥٥م .

٥- ابن جبير : أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني (ت٦١٤هـ)

تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسعار ، بيروت دار و مكتبة الهلال ، ١٩٨١م .

٦- ابن الجزري : شمس الدين أبو الخير بن محمد (ت٨٣٣هـ)

غاية النهاية في طبقات القراء ، نشره برجستراس / ط بيروت ، دار الكتب العلمية ١٩٨٢م.

٧- الحميدي : أبو عبد الله محمد بن أبي نصر (ت٤٨٨هـ)

جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس ، تحقيق إبراهيم الإبياري ، ط، القاهرة ، بيروت ، دار الكتاب المصري و دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٤م .

٨- ابن حيان : أبو مروان حيان بن خلف (ت٤٦٩هـ)
المقتبس من أبناء أهل الأندلس ، تحقيق محمود على مكي ، بيروت دار الكتاب العربي ، ١٩٧٣م — القسم الثاني .

٩- الخشني : محمد بن حارث (ت٣٧١هـ)
تاريخ علماء الأندلس ، مخطوط بالمكتبة الملكية بالرباط رقم ٦٩١٦

١٠- ابن الخطيب : لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت٧٧٦هـ)
الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، ط، القاهرة مكتبة الخانجي ، ١٩٧٣م.

١١- ابن خلدون : ولي الدين عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ)
المقدمة — بيروت ، طبعة دار المصحف .

١٢- ابن خير الاشبيلي : أبو بكر محمد بن خير (ت) فهرسة مارواه عن شيوخه، نشرها فرنسيسكو كودير اوخوليان ريبيرا ، بيروت ، ١٩٦٣ ،ط٢

١٣- ابن رشيد الفهري : أبو عبد الله محمد بن عمر السبتي (ت٧٢١هـ)
ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة و طيبة ، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ، ط ، دار الغرب — بيروت ، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

١٤- الزبيدي : محمد مرتضى الحسيني (ت١٢٠٥هـ)
تاج العروس من جواهر القاموس ، المطبعة الخيرية.

١٥- ابن عبد الملك المراكشي : أبو عبد الله محمد بن محمد (ت٧٠٣هـ)

الذيل و التكملة لكتابي الموصول و الصلة ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٧٣م.

١٦- ابن عطية : أبو محمد عبد الحق بن عطية المحاري (ت نحو ٥٤١هـ)
فهرس ابن عطية ، تحقيق محمد أبو الأجفان ومحمد الزاهي، ط٢١بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، ١٩٨٣م.

١٧- عياض : أبو الفضل عياض بن موسى اليجصي (ت٥٤٤هـ)
ترتيب المدارك و تقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، تحقيق أحمد بكير محمود ، بيروت ، طرابلس ، دار مكتبة الحياة و دار مكتبة الفكر ، ١٩٦٧م.

١٨- الغنية – فهرست شيوخ القاضي عياض ، تحقيق ماهر حرار ، ط ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، ١٩٨٢م.

١٩- ابن الفرضي : أبو الوليد عبد الله بن محمد الأزدي (ت٤٠٣هـ)
تاريخ علماء الأندلس ، تحقيق عزت العطار الحسيني ، ط٢ ، القاهرة، مكتبة الخانجي ، ١٩٨٨م.

٢٠- المقري : أحمد بن محمد التلمساني (ت١٠٤١هـ)
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق أسامة عباس – بيروت – دار صادر ، ١٩٦٨م.

***

١- إبراهيم القادري بوتشيش : العلماء المجاورون بمكة نموذج للملتقيات العلمية بمكة.

بحث مقدم للندوة الإسلامية السنوية الكبرى لموسم حج ١٤٢٣ هـ - المملكة العربية السعودية وزارة الحج ، ١٤٢٣هـ .

٢- أبو القاسم سعد الله : التبادل الثقافي بين مكة و المغرب الإسلامي

بحث مقدم للندوة الإسلامية السنوية الكبرى لموسم حج ١٤٢٣هـ .

٣- أحمد الريسوني : مكة المكرمة في الثقافة المغربية

بحث مقدم للندوة الإسلامية السنوية الكبرى موسم حج سنة ١٤٢٣هـ.

٤- أحمد شلبي : تاريخ التربية الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٩٦م الطبعة الثانية .

٥- العربي سالم الشريف : مكة و المجاورون الأندلسيون من العلماء و الفقهاء عبر التاريخ

بحث مقدم للندوة الإسلامية السنوية الكبرى لموسم حج ١٤٢٣هـ.

٦- حسن الوراكلي : المجاورون الأندلسيون (مساهمتهم في تشكيل صورة مكة العالمة)

بحث مقدم للندوة الإسلامية السنوية الكبرى لموسم حج ١٤٢٣هـ.

٧- خالد عبد الكريم حمود البكر : الرحلة الأندلسية إلى الجزيرة العربية من القرن الثاني حتى نهاية القرن الثالث الهجري . جامعة الملك سعود ، الرياض ، ١٤٢٣هـ.

٨- سعد عبد الله البشري : الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس

رسالة ماجستير ، ١٤٠١هـ / ١٤٠٢هـ / جامعة أم القرى

٩- عواطف محمد يوسف نواب : الرحلات المغربية و الأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين ، دراسة مقدمة إلى قسم التاريخ الإسلامي لنيل درجة الماجستير ١٤١١هـ /١٩٩١م – جامعة أم القرى.

١٠- محمد الهادي أبو الأجفان : رحلات عرب الأندلس إلى الحرمين – ندوة الأندلس قرون من التقلبات و العطاءات (الرياض ، مكتبة الملك عبد العزيز العامة ، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

١١- محمد الهادي أبو الأجفان : رحلة القلصادي ، ط١ ، الشركة التونسية للتوزيع .

١٢- يوسف أحمد بني ياسين : علم التاريخ في الأندلس حتي نهاية القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) الطبعة الِأولي ٢٠٠٢م – مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية و النشر و التوزيع ، أربد – الأردن.